ذكرى الهجرة النبوية الشريفة

﴿ وجعلها تاريخا عاما للبشر ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الله أكبر ، هذا هلال العام الجديد عام ١٣٣٠ للهجرة النبوية الشريفة . هذا هو الهلال الذي يذكرنا في كل سنة بذلك النور الذي كان خفيا في مكة المكرمة ، فأشرق بالهجرة في المدينة المنورة ، ثم امتد منها الى جميع أرجاء العالم ، فدخل به العالم الانساني في عصر جديد ، فكان تاريخا للانسانية جديدا

الله أكبر ، هذا هو الهلال الذي يذكرنا في فاتحة العام ، بذلك الاصلاح العام ، الذي جاء به الاسلام ، فاستفاد منه جميع الانام ، ثم حالت الاحوال ، فصار حظ المسلمين من سعادته دون حظ غيرهم ، حتى آل أمرهم في العام الذي ودعناه الى مايعرفه كل أحد ، من وقوع خطر وتوقع خطر ، فعسى ان يكون حظ هلالنا السياسي الاجتماعي في هذا العام الجديد خيرا منه فيما قبله ، ولا يكون كذلك الا بالرجوع الى تلك الهداية العليا : هداية التوحيد والاعتصام ، بعد الشقاق والخصام ، « ولا تنازعوا

فتفشلوا وتذهب ريحكم » وبالسير على سنن الله في خلقه « قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا » وبتغيير ما بأنفسنا من الاخلاق والافكار ، التي خالفنا فيها سلفنا الاخيار « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم »

دخل العالم بالهجرة النبوية في عصر جديد لم يسبق له نظير في التاريخ فكان جديرا بأن يكون تاريخا للبشر كافة ، لا للمسلمين خاصة ،

قضى الاسلام قضاءه المبرم على الوثنية التي أذلت البشر واستعبدتهم للملوك المستبدين ، والرؤساء الروحانيين ، ولمظاهر الطبيعة وما يمثلها في الهيا كل من الاصنام والاوثان ، وقرر حرية الاعتقاد والوجدان ، والاجتهاد الاستقلالي في العقائد والاعمال ، والشورى في السياسة والاحكام ، وأبطل امتيازات الانساب والاجناس ، التي كان يستعلي بها الناس على الناس ، بغير علم نافع ، ولا عمل رافع ، وجعل قاعدة الانسانية العامة قوله عز وجل « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله أتقاكم »

هذا درس عام في حقوق الانسانية العامة ، علمه الاسلام لجميع البشر بالقول والفعل ، فاستفادوا منه بقدر استعدادهم في كل عصر من الاعصار ، فاذا كانت العرب قد سبقت غيرها الى الاستفادة منه لانه ألقي بلغتها وظهر فيها ، فأزالت ظلم الرومان وغيرهم من المتغلبين القاهرين للانسانية ، وأحيت بالعلوم والمعارف ، وأنشأت جنات المدنية في الشرق والغرب ، فغرب لاحق بيذ السابق ، كما رأينا الشعوب الافرنجية قد أخذت المدنية عن أجدادنا أهل الاندلس وغيرهم وبرزت علينا فيها ،

فكل هذا مما يجب أن يذكرنا به تاريخ الهجرة فنعلم ان البشر لو انصفوا لجعلوه التاريخ العام لهم

كان البشر قبل الاسلام متقاطعين ليس بينهم صلة عامة ، وكانت المدنية تظهر في قطر من أقطارهم ثم تختفي وتزول قبل أن تتصل بسائر الاقطار ، بل كانت الاديان ذات السلطان الاعلى على البشر تشرع وتنسخ فلا يمر زمن قليل الا ويذهب أصلها وينقطع سندها ، وما اتصلت حلقات سلسلة العلم الالهي والبشري ، وسلسلة المدنية والاعمال البشرية ، الا بهذا الانقلاب الاسلامي الذي جدد تاريخ البشر ، فصار جميع ما يؤلف في بغداد وسمرقند وخراسان وغيرها من مدن الشرق ، ينسخ ويقرأ في عصر مؤلفيه بقرطبة وغرناطة وسائر مدن الاندلس في أقصى الغرب ، (والحكم على العكس بحكم الطرد) فبهذا كانت الهجرة أجدر حوادث الكون بأن تكون مبدأ تاريخ علم للبشر ـ كذلك أشرعت منذ ذلك العصر ، طرق التجارة بين الخافقين في البر والبحر ، وصار يتحقق بالتدريج ما هدى القرآن البشر اليه من حكمة التعارف بين الشعوب والقبائل ، الذي يمهد السبيل الى الاخوة الانسانية العامة . ولولا ذلك الروح الالهي الذي بثه الاسلام في الناس ، لما تيسرت لهم تلك المواصلة في ذلك العهد الذي لم تكن تعرف فيه الكهرباء ولا البخار ، وانما كانت همة المسلمين ناشئة عن قوى الطبيعة التي عرف منها تلاميذهم من بعدهم ، ما كانوا أعدوا عدته ومهدوا طريقه لهم ، فكما سرت جميع شعوب المدنية في ذلك وغيره على طريقهم ، كان ينبغي ان يشاركوهم في تاريخهم ،

أحيا المسلمين ما كان أماته الزمان من علوم اليونان ، فاذا هي علوم

أكثرها نظري وأقلها عملي ، وكان من هداية الاسلام لهم ان يقرنوا العلم بالعمل ، فكانوا هم الذين وضعوا قواعد التجربة والعمل للعلوم الطبيعية ، فجعلوا الكيمياء الخرافية كيمياء عملية ، وعلى هذه القاعدة بنى تلاميذهم الافرنج علومهم التي قامت بها المدنية الحديثة ، فبهذا كان الاسلام فاتحة عصر جديد ايضاً ، وكان تاريخ الهجرة الشريفة جديراً بأن يكون تاريخاً عاماً للبشر كلهم

ان فيما شرعه الاسلام من الهجرة تربية عالية للبشر ، الذين قرن الله تكريمهم في كتابه بتعظيم شأن السفر ، فقال « ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر » فالهجرة عبارة عن فرار الانسان بحريته في فكره ووجدانه وعمله من الارض التي يُضطهد فيها ويُظلم ، الى الارض التي يكون فيها حراً عزيزاً

قال تعالى « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » ولما اشتد ايذاء المشركين للمؤمنين في مكة أمر النبي صلى الله عليه وسلم المسلمين بالهجرة الى الحبشة ، وعلل ذلك بان ملكها النجاشي لا يظلم عنده أحد ، فثبت بالكتاب والسنة ان الهجرة قد شرعت لتكريم البشر ، وتعظيم شأن الحرية ، واباء الظلم والذل والضعف ، وقد كان المسلمون أعز الناس وأكرمهم نفوساً ، وأشدهم اباء للذل والظلم ، عندما كانوا عالمين باسرار هذا الاصلاح الذي جاء به دينهم عاملين به ، ثم سرى هذا الاباء والعز منهم الى غيرهم ، بعد ما ضعف فيهم ، فكان خيره عاماً منتشراً في البشر ، فما أجدر الهجرة الشريفة بأن تكون تاريخاً عاماً لهم

أشرق نور النبي صلى الله عليه وسلم على مدينة يثرب عند دخول الشمس في برج الميزان أول الاعتدال الخريفي ، (٢٣ سبتمبر) فكان ذلك اشارة الى ماتدخل فيه العالم من عصر العدل والاعتدال ، فكان ينبغي للمسلمين أن يجعلوا ذلك مبدأ للتاريخ الشمسي للهجرة الشريفة عند حاجتهم اليه لاجل المعاملات المالية ، كما جعلوا التاريخ القمري للمعاملات الدينية ، فاذا كنا قد دخلنا اليوم في عام ١٣٣٠ الهجري القمري فقد دخلنا منذ ثلاثة أشهر في عام ١٢٩٠ الهجري الشمسي ، فهل لمصر أن تكون السابقة الى استعمال هذا التاريخ الشمسي ، كما كانت هي السابقة للعالم الاسلامي كله الى الاحتفال بذكرى التاريخ القمري ، بعد ان كاد ينسى فيها باستعمال التاريخ الافرنجي الذي أخذناه عن الافرنج في هذا العصر وما كنا لترجيحه على تاريخنا محتاجين.

لولا ان انحلت روابطنا ، وسحقت مرائرنا ، لما استبدلنا بتاريخنا تاريخ غيرنا ، ولقد كان يوم تقرير الحكومة المصرية جعل التاريخ الافرنجي رسميا يوم فرح وسرور في أوربة ، لان ماتقلد به أمة أمة في أمر من الامور المالية العامة يكون دليلا على ضعف المقلدين « بكسر اللام » وعلو شأن المقلدين « بفتح اللام » ومقدمة لاستيلاء المتبوع على التابع والسيطرة عليه

يقول المقلدون منا انه لابد لنا من التاريخ الشمسي وان التاريخ الافرنجي قد اشتهر فهو أولى من احياء تاريخ الهجرة الشمسي الذي لايفهمه أحد . وكذلك ينصح بعض الناس للدولة العثمانية أن تختار هذا التاريخ في معاملاتها المالية والرسمية . وهذه حجة الضعيف في استقلاله الشخصي والملي . ويرد هذا بأن الاستعمال يجيء بالشهرة ويجعل المجهول

معروفا ، فقد كان بدء جعل الميلاد أساسا للتاريخ في سنة ٤٦ هجرية ولم يكن مشهورا ولا معروفا ، ثم ظهر لهم الخطأ فيه فحرروه وصححوه ولا يزال مبنيا على خطأ استقر رأي الاكثرين فيه على قاعدة « الخطأ المشهور خير من الصواب المهجور » فما هو الموجب لترك ماعندنا من الصواب وتقليد غيرنا في الخطأ ؟ وتاريخنا أحق بالتعميم وأجدر ، وتقدم المرجوح في الزمن لايجعله راجحا ، فالقدم أمر نسبي كما قال الشاعر :

ان ذاك القديم كان حديثا وسيبقى هذا الحديث قديما

لا يكفي في تعظيم الهجرة واحياء ذكرى تاريخها أن نحتفل في هذا اليوم بالقاء الخطب ، وانشاد القصائد ، وانشاء المقالات في الجرائد ، وانما يجب علينا تعظيمها بالعبرة والعمل ، والمقابلة بين ماضينا وحاضرنا لا لاجل التلذذ بذكر الماضي الجميل ، والفرور بما مضى وانقضى من ذلك التاريخ المجيد ، ولا لاجل الشكوى من الضعف القعيد ، واليأس من المستقبل القريب أو البعيد ، بل لاجل أن تتذكر وتتدبر ، فنعلم أنه لا يصلح آخرنا ، الا بما صلح به أولنا ، كما قال أحد أئمة العلم من سلفنا ، وان في تاريخ الهجرة من ضروب العبرة ، وآيات الحكمة ، لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد

نودع عاما ونستقبل عاما فلا تطوى صحف عامنا الغابر على عمل يذكر ، ولا ينشر في صحف العام الحاضر مشروع للامة يشكر ، الا مايرى في بعض البلاد من الحركة الضعيفة ، ودروج كدروج الاطفال وراء الشعوب القوية ، التي تسير امامنا بقوة البخار والكهرباء ، فتسبق الاراقم على الارض والطيور في الهواء ، واننا لنرى حولنا في كل عام فتنا كقطع الليل المظلم ،

كلما غشيتنا قطعة منها وجمنا وتألمنا ، وصحنا ونحنا ، فاذا هي انجلت عنا كما كنا . لانحسب لها بعدها حسابا ، ولا نعمل لها عملا ، أرضينا أن نكون ممن قال الله تعالى فيهم (أولا يرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون)

كلا انا الى ربنا تائبون ، ولما هدانا اليه من الجمع بين العلم والعمل متوجهون ، بها تبشرنا الحوادث ، والى هذا تدعونا بل تدعمنا الكوارث ، ورب مصيبة أفادت عبرة ، خير من نعمة أحدثت غرورا وفترة ، وانا نهنئ اخواننا المسلمين على رأس هذا العام ، بما نجدد لهم من شعور الاخوة العام ، ونبشرهم بأن جامعة الدعوة والارشاد قررت تنفيذ نظام مدرستها الكلية (دار الدعوة والارشاد) من غرة هذا الشهر فاتحة العام الهجري المبارك ان شاء الله تعالى ، وسينشر هذا النظام في الجرائد فيرون فيه أنه هو الضالة التي ينشدها المصلحون ، والرغبة التي ينتظرها المحسنون « لمثل هذا فليعمل العاملون »

ناظر دار الدعوة والارشاد

محمد رشيد رضا

علاوة للمقالة

كتبت هذه المقالة في سلخ ذي الحجة سنة ١٣٢٩ في ادارة المؤيد اذ كلفت ثمة ان اكتب مقالة افتتاحية لعدد المؤيد الذي يطبع في ذلك اليوم ويصدر في صبيحة المحرم افتتاح سنة ١٣٣٠ أوليلتها — كتبتها على عجل ومر تبو حروف المؤيد يأخذون مني كل ورقة قبل ان يجف حبرها

ويستعجلوني بما بعدها ، فلم يسمح ضيق الوقت وابتعجال العمل بشرح مسألة احياء التاريخ الهجري الشمسي والتوسع فيها ، لهذا رأيت ان أجعل لها هذه العلاوة الآن ، وأطبعها على حدتها وفي المنار ،

من اختبر احوال المسلمين في هذا العصر يرى في اخلاقهم وأحوالهم تناقضاً عجيباً اذ يراهم من اشد خلق الله غيرة على دينهم وحرصاً على جامعتهم الاسلامية ، ومن اشد خلق الله تهاونا واهمالاً في أمر دينهم ، وعدم المبالاة والاكثرات بما يحفظ جامعتهم ويقوي رابطتهم ، واذا بحث في اختلاف الوجوه بين هذه الامور المتناقضة يرى شواهد كثيرة تدل على أن ماذكرنا من حرص السواد الاعظم وغيرتهم محصورة في حب استبقاء الموجود ، واما تهاونهم واهمالهم وعدم مبالاتهم فلا تنحصر في تركهم السعي لاسترداد ما فقدوا من علم وعمل ، ونور وهدى ، ومجد تليد ، وسيادة قديمة ، بل تتناول مع هذا ضعف الهمة في طلب المجد الطريف ، وعدم العناية في البناء والتجديد ،

لو كان هذا التفصيل الذي يدل عليه الاختبار ، ويثبته التمحيص والاعتبار ، عاماً شاملا لجميع المعروفين من أهل الرأي والعمل من المسلمين (على قلتهم) لكان دليلا على ان المسلمين يموتون موتاً طبيعياً ، وان اعداءهم لا يحتاجون الى ادنى سعي في الاجهاز عليهم ، ومبادرة ما يخشونه من يقظتهم وانتباههم ، لأن اخص صفات الاحياء الذين يزدادون حياة وقوة هو أن يطلبوا ما يمد حياتهم ويغنيها ، وأخص صفات الموجودات المشرفة على الموت والفناء أن تخمل وتنقص يوما بعد يوماً فتألم لما ينقص منها ، ولا تطمع في زيادة تمد حياتها ولا تطلبها

نرى بعض الشعوب تحيا بعد موت فتجدد ما كان اندرس من مقوماتها ومشخصاتها ، كاليونان والارمن على تفرقهم ، والقبط على قلتهم ، ونرى المسلمين على كثرتهم ، واتصال أقطارهم ، قد صاروا طعمة لكل آكل ، ونهبة لكل طامع ، واكثرهم راضون بسوء حالهم فيه ، ومنهم من يطلب تغييره بالانسلاخ من ماضيه ، والاندغام في شعب غريب لا يرتضيه ، وهؤلاء هم الذين يسمون أنفسهم المجددين ، وطلاب المجد والحضارة ، ومكوني الوطنية ، وخالقي الشعور بالحياة المدنية ، والحق انهم شر من الراضين بما وصلنا اليه من الضعف والخمول ، لأن هؤلاء الخاملين قد رضوا بهذه الحالة التي لا نجد لها تفسيرا الا انها مما يسمونه « الموت صبرا » وأما المقلدون الذين رضوا بانحلال رابطتهم الملية ، وعفاء مقوماتهم ومشخصاتهم الموروثة ، وانتحال جنسية لغوية او وطنية جديدة ، لا اضطلاع لهم بها ، وليسوا الا مقلدين في انتحالها ، فانما رضوا ان يخدعوا أنفسهم ، ويخروا أمتهم ، ويجعلوها غذاء لأعدائهم

هنا لك حزب ثالث وسط بين ذينك الحزبين ، وهم حزب الله المفلحون إن شاء الله ، الذين يطلبون المجد الطريف ، ليكون متحداً بالمجد التليد ، الذين يريدون الحياة بمقوماتهم ومشخصاتهم الخاصة بهم ، لا بانتحال ما هو من ذلك لغيرهم ، الذين يريدون صقل جوهرهم لتظهر خواصه ومزاياه في أكمل ما يمكن ان يكون عليه ، لا تحويله ولا تمويهه بما ليس منه ،

إن ما يُرى من ظواهر الحياة على حزب الجمود انما هو الغثاء الباقي

لهم من الحياة القديمة ، وان ما يرى من اعراض الحياة على حزب التقليد انما هو صناعي مستعار من الامم الغربية ، والدماء لا يلبث أن يزول ، والمستعار مهما طال زمنه مردود ، وأما حزب الوسط فهم شهداء على الفريقين ، ولكنهم لا يزالون غرباء في ديارهم ، والرجاء كما قلنا متعلق بهم أو محصور فيهم ، وهم المخاطبون بإقناع أهل الاخلاص باحياء ما اندرس من السنن ، وسن ما يعد من النافع الحسن ، عملا بقول النبي (ص) « من سن في الاسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير ان ينقص من اجورهم شيء » وقد سن عمر بن الخطاب (رض) — ووافقه المسلمون كافة — سنة التاريخ بالهجرة في الحساب القمري ، ثم اشتدت الحاجة الى احياء التأريخ بها في الحساب الشمسي ، فما لنا لا نستعمل كلا التاريخين ، وقد هدانا الله تعالى في كتابه ونظام خليقته الى الحسابين « الشمس والقمر بحسبان »

انا نرى اهل الملل كافة والنصارى منهم خاصة يحافظون على تواريخهم الملية ولا يكادون يستعملون معها غيرها ، حتى انا نراهم ينقلون الشيء عن غيرهم كالمسلمين ويكون فيه تاريخ بعض الوقائع والحوادث فيحولونه في أثناء النقل الى تاريخهم حتى لا يفكر قراء ما يكتبونه او يقولونه — ولو نقلا — في غير ما هو لهم .

بل نرى الملايين من الروم الارثوذكس لا يتركون ما اعتادوا من الغلط في تاريخ الميلاد الذي يعبرون عنه بالحساب الشرقي ، ونرى القبط يقدسون تاريخهم الخاص بهم الذي يسمونه تاريخ الشهداء على تاريخ الميلاد العام بين أهل ملتهم ، ولو تركوا تاريخ الشهداء الى تاريخ المسيح الذي يقولون انه رب الشهداء وإلههم لم يكونوا قد تركوا شيئا من

شؤونهم المليـة الى ماليس منها . فما بالنا نحن المسلمين نرغب عن تاريخنا الذي هو أجدر جميع التواريخ بالتعميم الى تواريخ الاغيار من الروم والافرنج والقبط وغيرهم ؟ ان ديننا يهدينا الى أن نكون أئمة متبوعين، فلماذا ذللنا حتى رضينا ان نكون مقلدين تابعين ، ونحن نرى الذين جعلناهم أئمة لنا يسخرون منا ويدعوننا متعصبين

الا ان من الذل والخسف الذي سنته الحكومة المصرية ما نراه في كثير من أوراقها الرسمية واعداد البيوت والمركبات وغير ذلك من تشريف الكلم والارقام الافرنجية على مثلها العربي ، فاما ان تجعل ما يكتب بالافرنجي هو الاعلى واما ان تجعله هو الايمن ، ومن طمس التفرنج نور بصيرته ، او طبع الذل على قلبه ، فعدّ هـذا مما لا يبالى به ، ولا يؤبه له ، يقال له اذاً كيف اهتم به سادتك الافرنج ونفذوه في بلادك ؟ وأنّى ينفع القول ، ومن هان عليه الذل في الامر الصغير ، لا يأبى حمله في الامر الكبير ، وقد قلت في المقصورة

من ساسه الظلم بسوط بأسه هان عليه الذل من حيث اتى

اذا اردنا ان نحيا فعلينا ان نهتم بكل ما نحفظ به مقوماتنا ومشخصاتنا المليّة الموروثة ، وان نقتبس كل ما نراه نافعاً من حضارة هذا العصر ، بهذه النية وهذا القصد ، وان نهتم بالصغير والكبير من ذلك على السواء ، وان نجتهد لنكون رءوساً لا اذنابا ، وأئمة لا أتباعا ، وما دمنا لا نستغني عن التاريخ الشمسي في معاملتنا المالية ونحوها ، فلا مندوحة لنا عن جعله هجريا كالتاريخ القمري في المعاملات الدينية

اذا اردنا ان نسنّ هذه السنة الحسنة فالطريق قد أشرع ، والحساب

قد وضع ، فقد صنف أحمد مختار باشا الغازي كتابا فيه سماه (اصلاح التقويم) وطبع بالعربية والتركية سنة ١٣٠٧ تكلم فيه عن تواريخ الامم والشعوب المشهورة وبين وجه الحاجة الى العمل بالتاريخ الهجري الشمسي وضع له جدولا مطولا بين فيه السنين الشمسية الهجرية مع المقارنة بينها وبين السنين القمرية والسنين الشمسية الميلادية من ابتداء السنة الشمسية الهجرية الاولى الى سنة ١٥٩١ التي توافق آخر سنة ١٦٣٩ القمرية وسنة ٢٢٩٢ الميلادية وقد استحسن ان تسمى الشهور بما هو نص في الدلالة على المسمى في تحديد الفصول ، فالسنة الهجرية الشمسية تبتدئ من أول الخريف فتسمى شهورها هكذا : الخريف الأول ، الخريف الثاني ، الخريف الثالث ، الشتاء الأول الشتاء الثاني الشتاء الثالث ، الخ . وسمى الربيع بهارا وهو لفظ تركي — وذكر وجها ثانيا نذكر بقية الشهور به وهو : أول الربيع ، اوسط الربيع ، آخر الربيع ، اول الصيف ، آخر الصيف ، أوسط الصيف . ويمكن ان يقال الربيع الادنى ، الربيع الاوسط ، الربيع الاقصى وهكذا ، ولعل هذا هو الاولى ، واي التعبيرات اختير فكل من سمع اسم الشهر يفهم معناه من لفظه

واخبرني احمد مختار باشا الغازي في القسطنطينية انه كتب تقريرا يطلب فيه من مجلس الأمة العثمانية العمل بهذا التاريخ وجعله رسميا للدولة . ولكن ما دامت الغلبة في المجلس للمتفرنجين المعروفين ، فلا ترجى اجابة هذا الطلب ، الا ان تطالب الأمة به من كل ولاية . واذا سبق مسلمو مصر الى استعمال هذا التاريخ والدعوة اليه فالمرجو ان يعم انتشاره في اقرب وقت ، والله الموفق